الأسد

جلس أبو عليٍّ أحمد بن محمد الرُّوذبادي البغداديُّ[١] في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بُنان الحمَّال الزَّاهد الواسطيِّ شيخ الدِّيار المصريَّة[٢] ، وكان يُضرب المثل بعبادته ، وزهده ؛ وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته ، فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدُّنيا ؛ ما بقي أحدٌ إلا اقتنع : أنَّه في شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التُّراب ولون الدَّقيق ؛ إذ ينظر كلُّ امرئٍ في مصالحه ، ومنافعه مثل هذه النَّظرة ، باللَّمس لا بالبصر ، والتَّوهُّم لا بالتَّحقيق ، وعلى دليل نفسه في الشَّيء ، لا على دليل الشَّيء في نفسه ، وبالإدراك من جهةٍ واحدةٍ دون الإدراك من كلِّ جهة . ثمَّ يأتي الموت ، فيكون كالماء صُبَّ على الدَّقيق والتُّراب جميعاً ، فلا يرتابُ مبصرٌ ولا أعمى ، ويبطُل ما هو باطلٌ ، ويحِق الَّذي هو حقٌّ .

وتكلَّم أبو عليٍّ ، فقال : كنتُ ذات يومٍ عند شيخنا الجنيد[٣] في بغداد ، فجاءهُ كتابٌ من يوسف بن الحسن ـ شيخ الرَّيِّ والجبال في وقته[٤] ـ يقول فيه : لا أذاقكَ اللهُ طعمَ نفسك ! فإنَّك إن ذقتها ؛ لم تذقْ بعدها خيراً أبداً ! قال : فجعلت أفكر في طعم النَّفس ما هو ؟ وجاءني ما لم أرضه من الرأي حتَّى سمعت بخبر بُنان ـ رحمه الله ـ مع أحمد بن طولون أمير مصر ، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا لأرى الشَّيخ ، وأصحبَه ، وأنتفعَ به .

والبلد الذي ليس فيه شيخٌ من أهل الدِّين الصَّحيح ، والنَّفس الكاملة ، والأخلاق الإلـهيَّة ، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب البتَّة ، وإن كان كلُّ أهله علماء ، وإنْ كان في كلِّ محلَّةٍ منه مدرسةٌ ، وفي كلِّ دارٍ من دوره

---

(١) توفي سنة (٣٢٢ هـ) . (ع) .
(٢) توفي سنة (٣١٦ هـ) . (ع) .
(٣) توفي سنة (٢٩٨ هـ) . (ع) .
(٤) كانت وفاته سنة (٣٠٤ هـ) . (ع) .

خزانة كتب ؛ فلا تغني هذه الكتب عن الرِّجال ، فإنَّما هي صوابٌ ، أو خطأٌ ينتهي إلى العقل ، ولكن الرَّجل الكامل صوابٌ ينتهي إلى الرُّوح ، وهو في تأثيره على النَّاس أقوى من العلم ؛ إذ هو تفسير الحقائق في العمل الواقع ، وحياتها عاملةٌ مرتَّبةٌ داعيةٌ إلى نفسها ، ولو أقام النَّاس عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ، ووسائلها ، ووضعوا في ذلك مئة كتاب ، ثمَّ رأَوا رجلاً فاضلاً بأصدق معاني الفضيلة ، وخالطوه ، وصحبوه ؛ لكان الرَّجل وحده أكبرَ فائدةٍ من تلك المناظرة ، وأجدى على النَّاس منها ، وأدلَّ على الفضيلة من مئة كتاب ، ومن ألف كتاب ؛ ولهذا يرسل الله النَّبيَّ مع كلِّ كتابٍ منزَّلٍ ؛ ليعطيَ الكلمة قوَّةَ وجودِها ، ويخرج الحالة النَّفسيَّة من المعنى المعقول ، وينشئ الفضائل الإنسانيَّة على طريقة النَّسل من إنسانها الكبير .

وما مثل الكتاب يتكلَّم المرءُ منه حقائقَ الأخلاق العالية إلا كوضع الإنسان يدَه تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض ؛ فقد أنشأ يعمل ، ولكنَّه لن يرتفع ، ومن ذلك كان شرُّ النَّاس هم العلماءَ ، والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل عملاً آخر غير الكلام ، فإنَّ أحدهم ليجلس مجلس المعلم ، ثمَّ تكون حوله رذائله تعلم تعليماً آخر من حيث يدري ، ولا يدري ، ويكون كتاب الله مع الإنسان الظَّاهر منه ، وكتابُ الشَّيطان مع الإنسان الخفيِّ فيه .

* * *

قال أبو عليٍّ : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن ، وآخذ عنه ، وأحقِّق ما سمعت من خبره مع ابن طولون ، فلمَّا لقيته ؛ لقيت رجلاً من تلاميذ شيخنا الجنيد ، يتلألأ فيه نوره ، ويعمل فيه سرُّه ، وهما كالشَّمعة ، والشَّمعة في الضَّوء وإن صغرت واحدةٌ ، وكبرت واحدةٌ ، ولا علامة الرَّجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر ممَّا يعمل هو بنفسه ، كأنَّ بين الأرواح وبينه نسباً شابكاً ، فله معنى أبوَّة الأب في أبنائه : لا يراه من يراه منهم إلا أحسَّ أنَّه شخصه الأكبر ، فهذا هو الذي تكون فيه التَّكملة الإنسانيَّة للنَّاس ، وكأنَّه مخلوقٌ خاصَّةً لإثبات أنَّ غير المستطاع مستطاعٌ .

ومن عجيب حكمة الله أنَّ الأمراض الشَّديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها ، أو لامسها ، وأنَّ القوى الشَّديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتَّصل بها ، أو صاحبها ، ولهذا يخلق الله الصَّالحين ، ويجعل التَّقوى فيهم إصابةً كإصابةِ المرض تصرف عن

شهوات الدُّنيا ، كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النَّفس ، كما يكسرها ذاك ، وتفقد الشَّيء ما هو به شيءٌ ، فتُحوَّل قيمتُه ، فلا يكون بما فيه من الوهم ، بل بما فيه من الحقِّ .

وإذا عدم النَّاسُ هذا الرَّجل الذي يعديهم بقوته العجيبة ؛ فقلَّما يصلحون للقوَّة ، فكبار الصَّالحين ، وكبار الزُّعماء ، وكبار القوَّاد ، وكبار الشُّجعان ، وكبار العلماء، وأمثالهم، كلُّ هؤلاء من بابٍ واحدٍ ، وكلُّهم في الحكمة ككبار المرضى .

* * *

قال أبو عليٍّ : وهممتُ مرَّةً أن أسأل الشَّيخَ عن خبره مع ابن طولون ، فقطعتْني هيبتُه ، فقلت : أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرَّيِّ : « لا أذاقك الله طعم نفسك » ؛ وبينما أهيئ في نفسي كلاماً أجري فيه هذه العبارة ، جاء رجلٌ فقال للشيخ : لي على فلانٍ مئة دينار ، وقد ذهبت الوثيقة التي كتب فيها الدَّين ، وأخشى أن ينكرَ إذا هو علم بضياعها ؛ فادْعُ الله لي ولَهُ أن يُظفرني بِدَيني ، وأن يثبته على الحقِّ ! فقال الشيخ : إنِّي رجلٌ قد كبِرتُ ، وأنا أحبُّ الحلوى ، فاذهب فاشترِ رطلاً منها ، وائتني به حتَّى أدعوَ لك !

فذهب الرَّجل فاشترى الحلوى ، ووضعها له البائع في ورقةٍ ، فإذا هي الوثيقة الضَّائعة ، وجاء إلى الشَّيخ ، فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى ، فأطعِمها صبيانك ، لا أذاقنا الله طعمَ أنفسنا فيما نشتهي ! ثمَّ إنَّه التفتَ إليَّ ، وقال : لو أنَّ شجرة اشتهت غير ما به صحَّةُ وجودها ، وكمالُ منفعتها ، فأذيقت طعم نفسها ؛ لأكلت نفسها ، وذَوَتْ .

* * *

قال أبو عليٍّ : والمعجزات الَّتي تحدُث للأنبياء ، والكرامات الَّتي تكون للأتقياء ، وما يخرق العادة ، ويخرق على النَّسق ـ كلُّ ذلك كقول القدرة عن الرَّجل الشَّاذ : هو هذا . فلم تبقَ بي حاجةٌ إلى سؤال الشَّيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنِّي أرى بعينَيْ رأسي كلَّ ما سمعت ، بيد أنِّي لم أنصرف حتَّى لقيت أبا جعفرٍ القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوريَّ[1] ؛ ذاك الذي يحدِّث

(١) توفي سنة (٣٢٢ هـ) . (ع) .

بكتب أبيه كلِّها من حفظه ، وهي واحدٌ وعشرون مصنَّفاً ، فيها الكبير ، والصَّغير ، فقال لي : لعلَّك اشتفيت من خبر بُنان مع ابن طولون . فمن أجله زعمتَ جئت إلى مصر . قلت : إنَّه تواضع ، فلم يخبرني ، وهِبْتُهُ ، فلم أسأله قال : تعال أحدِّثك الحديث :

كان أحمد بن طولون(١) من جاريةٍ تركيَّةٍ ، وكان طولون أبوه مملوكاً ، حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليه من المال ، والرَّقيق ، والبراذين ، وغير ذلك ، فوُلد أحمد في منصب ذلَّةٍ تستظهر بالطُّغيان . وكانت هاتان طبيعته إلى آخر عمره ، فذهب بهمَّته مذهباً بعيداً ، ونشأ من أوَّل أمره على أن يتمَّ هذا النَّقص ، ويكون أكبرَ من أصله ، فطلب الفروسيَّة ، والعلم ، والحديث ، وصحب الزُّهَّاد ، وأهل الورع ، وتميَّز على الأتراك ، وطمح إلى المعالي ، وظلَّ يرمي بنفسه ، وهو في ذلك يكبر ، ولا يزال يكبرُ ، كأنَّما يريد أن ينقطع من أصله ، ويلتحق بالأمراء ؛ فلمَّا التحق بهم ؛ ظلَّ يكبرُ ليلحق بالملوك ، فلمَّا بلغ هؤلاء ؛ كانت نيَّته على ما يعلم الله .

قال : كان عقله من أثر طبيعته كالعقلين لرجلين مختلفين ، فله يدٌ مع الملائكة ، ويدُه الأخرى مع الشَّياطين ، فهو الَّذي بنى المارستان ، وأنفق عليه ، وأقام فيه الأطبَّاء ، وشرط إذا جيء بالعليل أن تنزع ثيابه ، وتحفظ عند أمين المارستان ثمَّ يُلبس ثياباً ، ويُفرشُ له ، ويُغدى عليه ، ويُراح بالأدوية ، والأغذية ، والأطبَّاء حتَّى يبرأ . ولم يكن هذا قبل إمارته . وهو أوَّل من نظر في المظالم من أمراء مصر ، وهو صاحب يوم الصَّدقة ، يُكثِر من صدقاته ؛ كلَّما كثرت نعمة الله عليه ، ومرتبه لذلك في كلِّ أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه الَّتي أقيمت في كلِّ يومٍ في داره ، وغيرها ، يذبح فيها البقر ، والكباش ، ويغرف للنَّاس ، ولكلِّ مسكينٍ أربعة أرغفة يكون في اثنين منها فالوذج(٢) وفي الآخرَين من القدور ، ويُنادى : من أحبَّ أن يحضر دار الأمير ؛ فليحضر ! وتفتح الأبواب ، ويدخل النَّاسُ بالأرض ، وهو في المجلس ينظر إلى المساكين ، ويتأمَّل فرحهم بما يأكلون ، ويحملون ، فيسرُّه ذلك ، ويحمد اللهَ على نعمته ؛ وكان راتب مطبخه في

---

(١) كانت إمارةُ ابن طولون نحو (٢٦) سنة ، وتوفي سنة (٢٧٠ هـ) . (ع) .

(٢) نوع من الحلوى ، وهو ما يُسمِّيه العامَّة (البالوظة) . (ع) .

كلِّ يومٍ ألف دينار ؛ واقتدى به ابنُه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامَّة[١] ، ينفق عليه ثلاثةً وعشرين ألف دينارٍ كلَّ شهرٍ .

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها في مدَّة ولايته ألفي ألف ومئتَي ألف دينارٍ[٢] . وكان كثيرَ التِّلاوة للقرآن ، وقد اتَّخذ حجرةً بقربه في القصر وضع فيها رجالاً ، سمَّاهم بالمكبِّرين ، يتعاقبون الليل نوباً ، يكبِّرون ، ويسبِّحون ، ويحمدون ، ويهلِّلون ، ويقرؤون القرآن تدريباً ، وينشدون قصائد الزُّهد ، ويؤذِّنون أوقات الأذان . وهو الذي فتح أنطاكية في سنة خمسٍ وستين ومئتين ، ثم مضى إلى طرسوس كأنَّه يريد فتحها ، فلمَّا نابذه أهلها ، وقاتلهم ؛ أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ، ليبلغ ذلك طاغيةَ الرُّوم ، فيعلم أنَّ جيوش ابن طولون على كثرتها ، وشدَّتها لم تقم لأهل طرسوس ، فيكون بهذا كأنَّه قاتله ، وصدَّه عن بلدٍ من بلاد الإسلام ، ويجعل هذا الخير كالجيش في تلك النَّاحية !

ومع كلِّ ذلك فإنَّه كان رجلاً طائش السَّيف ، ويجور ، ويعسف[٣] ، وقد أحصِي مَنْ قتلهم صبراً[٤] ، أو ماتوا في سجنه ، فكانوا ثمانية عشر ألفاً ؛ وأمر بسجن قاضيه بكَّار بن قتيبة في حادثةٍ معروفة ، وقال له : غرَّك قول النَّاس : ما في الدُّنيا مثل بكّار ؟ ! أنت شيخٌ قد خرِفت ! ثمَّ حبسه ، وقيَّده ، وأخذ منه جميع عطاياه مدَّة ولايته القضاء ، فكانت عشرة آلاف دينارٍ ، قيل : إنَّها وجدت في بيت بكَّارٍ بختمها زهداً ، وتورُّعاً .

ولمَّا ذهب شيخك أبو الحسن يعنِّفه ، ويأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر طاش عقله[٥] ، فأمر بإلقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذي طار في الدُّنيا حتَّى بلغك في بغداد .

* * *

(١) هذا هو الأصل في مطعم الشعب . (ع) .

(٢) « الدينار » : نصف جنيه مصري ، فعدَّةُ ذلك مليون ومئة ألف جنيه ، صدقاته على بغداد وحدها ـ رحمه الله ـ . (ع) .

(٣) « يعسف » : يظلم ، ويجور .

(٤) « قتلهم صبراً » : حبسهم حتى ماتوا .

(٥) « طاش عقله » : خَفَّ ، وتشتَّت ؛ فجهل أو أخطأ .

قال : وكنت حاضرَ أمرهم ذلك اليوم ، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه ؛ وكان خمارويه هذا مشغوفاً بالصَّيد ، لا يكاد يسمع بسبع في غيضةٍ(١) ، أو بطن وادٍ إلا قصده ؛ ومعه رجالٌ عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوةً ، وهو سليم ، فيضعونه في أقفاص من خشبٍ محكمةِ الصَّنعة ، يَسَعُ الواحدُ منها السَّبُعَ وهو قائم .

وكان الأسد الذي اختاروه للشَّيخ أغلظَ ما عندهم ، جسيماً ، ضارياً ، عارم الوحشية ، متزيِّل(٢) العضل ، شديد عصب الخلق ، هرَّاساً(٣) ، فراساً(٤) ، أهرت الشِّدق(٥) يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ، ينبئ أنَّ جوفه مقبرةٌ ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهمُّ أن ينقذف على مَنْ يراه ، فيأكله !

وأجلسوا الشَّيخ في قاعةٍ ، وأشرفوا عليه ينظرون ، ثمَّ فتحوا بابَ القفص من أعلاه ، فجذبوه ، فارتفع ، وهجهجوا(٦) بالأسد يزجرونه ، فانطلق يزمجر ، ويزأر زئيراً تنشقُّ له المرائر ، ويتوهَّم من يسمعه : أنَّه الرَّعد وراءه الصَّاعقة ! .

ثمَّ اجتمع الوحش في نفسه ، واقشعرَّ ، ثمَّ تمطَّى كالمَنْجنيق يقذف الصَّخرة ، فما بقي من أجَلِ الشَّيخ إلا طرفة عين ، ورأيناه على ذلك ساكناً ، مطرِقاً لا ينظر إلى الأسد ، ولا يحفل به ، وما منَّا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع ، والرُّعب ، والإشفاق على الرَّجل .

ولا يَرُعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيَّته ، فأقعى(٧) على ذنبه ، ثمَّ لقَّ بالأرض هنيهةً يفترش ذراعيه ، ثمَّ نهض نهضةً أخرى كأنَّه غير الأسد ، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تُسمع لمفاصله قعقعةً من شدَّته ، وجسامته ، وأقبل على الشَّيخ ، وطفق يحتكُّ به ، ويلحظه ، ويشمُّه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به ، وكأنَّه

(١) « غيضة » : هي الشجر الكثيف الملتفّ .
(٢) « متزيل » : متفرق .
(٣) « هراساً » : الهرَّاس : الأسد الشديد الكسر ، والأكل .
(٤) « فراساً » : افترس الأسدُ فريسته : اصطادها ، ودقَّ عنقها ، فهو فرَّاس .
(٥) « أهرت الشدق » : الهرت : سعة الشِّدق .
(٦) « هجهجوا » : صاحوا .
(٧) « أقعىٰ » : جلس .

يعلن : أنَّ هذه ليست مصاوَلةٌ بين الرَّجل التَّقيِّ والأسد ، ولكنَّها مبارزةٌ بين إرادة ابن طولون ، وإرادة الله !

وضربته روح الشَّيخ ، فلم يبقَ بينه وبين الآدميِّ عملٌ ، ولم يكن منه بإزاء لحمٍ ، ودمٍ ، فلو أكل الضَّوءَ ، والهواءَ ، والحجرَ ، والحديدَ ؛ كان ذلك أقرب ، وأيسر من أن يأكل هذا الرَّجل المتمثِّل في روحانيَّته ، لا يحسُّ لصورة الأسد معنىً من معانيها الفاتكة ، ولا يرى فيه إلا حياةً خاضعةً مسخَّرةً للقوَّة العظمى ، الَّتي هو مؤمنٌ بها ، ومتوكِّلٌ عليها ، كحياة الدُّودة ، والنَّملة ، وما دونها من الهوامِّ والذَّرِّ !

وورد النُّور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحقِّ سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدي الأسد ، ولكنَّه هو والأسد بين يدي الله ، وكان مندمجاً في يقين هذه الآية : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشَّيخ من ذاته ومعانيها النَّاقصة ؛ خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشيَّة ، فليس في الرجل خوفٌ ، ولا همٌّ ، ولا جزعٌ ، ولا تعلُّقٌ برغبةٍ ، ومن ذلك ليس في الأسد فتكٌ ، ولا ضراوةٌ ، ولا جوعٌ ، ولا تعلُّقٌ برغبةٍ .

ونسي الشَّيخ نفسه ، فكأنَّما رآه الأسد ميتاً ، ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها ، ولو أنَّ خطرةً من هم الدُّنيا خطرت على قلبه في تلك السَّاعة ، أو اختلجت في نفسه خالجةٌ من الشَّكِّ ؛ لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد ، فيمزِّق في أنيابه ، ومخالبه .

* * *

قال : وانصرفنا عن النَّظر في السَّبع إلى النَّظر في وجه الشَّيخ ، فإذا هو ساهمٌ مفكِّرٌ ، ثمَّ رفعوه ، وجعل كلٌّ منَّا يظنُّ ظنّاً في تفكيره ، فمن قائل : إنَّه الخوف أذهله عن نفسه ، وقائلٍ : إنَّه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالثٍ يقول : إنَّه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم ، فلا يضرب ، وزعم جماعةٌ : أنَّ هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد ؛ وأكثرْنا في ذلك ، وتجارَيْنا فيه ، حتَّى سأله ابن طولون : ما الذي كان في قلبك ، وفيمَ كنتَ تفكِّر ؟

فقال الشَّيخ : لم يكن عليَّ بأسٌ ، وإنَّما كنت أفكِّر في لعاب الأسد ، أهو طاهرٌ ؟ أم نجسٌ ؟ .

* * *